Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 36:2 (2001)

بين أعين العشاق وأعين الرقباء

عبدالله محمد أحمد

كانت الحُـرَّة الكريمـة فـي المجتمـع العربـي القديـم مصونـة مكنونة وكان هذا لما كان يسود المجتمع العربي من قيم ولمـا كـان يتمتع به العربي من خلق رفيع منذ عهد الجاهلية. ولعل أكـثر مـا ميّز العرب هو الغيرة على النساء، ولا تزال هذه الغيرة حيـة فـي الصـدور وإن كان يحجبها شيء من غشاء التمدّن، ولم يكـن نصيـب العاشـق غير النظرة العجلى كما قال الشاعر:

نظرت إلى مي خلاسا عشية على عجل والكاشحون حضور
كذا مثل طرف العين ثم أكنها رواق أتى مـن دونهـا وسـتـور

وقد شبهوا المرأة لصعوبة الوصول إليها بالدرّة في صدفتها في لجة البحر:

رأى من دونها الغوّاص هولاً هـراكـلة وحيتاناً ونـونا[1].

تضرب حولها الحجب وتبث حولها العيون لا ترى رجلاً ولا يراها رجل من غير أهلهـا وقـد جـرى بيـت علقمـة فـي صفـة المـرأة الممنعة مجرى المثل:

منعّمة ما يستطاع كـلامها على بابها مـن أن تزارَ رقيب[2].

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

قال رجل يخاطب صاحبيه وقد دنوا من دار الحبيبة راجيا منهما أن يغضا من أصواتهما فلا يستدل القوم على مكانهم:

وتحدّثا سرّاً فحول خبائها سمُر الرماحِ يَملن للإصغاء[٣].

وتقعد حتى عن زيارة جاراتها:

ويُكرمها جاراتها فيزرنها وتعتلّ عن إتيانهن فتعذر[٤].

وكان الرجل يكره أن تولد له أنثى ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ**﴾[٥]. وكان وأد البنات عندهم من المكرمات:

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقا والموت أكرم نزّالٍ على الحرم[٦].

وقال قيس بن عاصم (كنت أخاف سوء الأحدوثة والفضيحة في البنات فما ولد لي بنت قط إلاّ وأدتها)[٧].

كل ذلك لما أودعه اللّه من الغيرة في قلوبهم، وقد كان لبعض أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم زوج اشترطت عليه عند الزواج ألاّ يمنعها المسجد وكان يكره ذلك، فكمن لها في بعض الليالي وضربها على بعض ظهرها بيده، وهي لا تعرفه، فلم تعد تخرج، فمكث زمانا ثم سألها ما الذي منعها من الخروج، قالت: كنا نخرج والناس ناس ما بهم من بأس أم الآن فلا[٨].

وكانت رؤية الحبيبة أمنية قلّما تظفر بها نفس العاشق وشكا ذلك ذو الرمة:

يا سرحةَ الماء قد سُدَّت موارده أما إليك طريقٌ غير مسدودِ[٩].

والعرب تكنى عن المرأة الجميلة بالسرحة النابتة على الماء

لأنها حينئذ أحسن ما تكون خضراء فارعة ناضرة الغصون والأوراق.

فإذا لقيها اضطرب وخانه جلده كما قال الهذلي:

وإني لتعروني لذكراك هِزَّة كما انتفض العصفور بلّله القطر

تكاد يدي تندى إذا ما لَمَستها وينبت في أطرافها الورقُ الخُضرُ(١٠).

وما هذا إلا لشدة شوقه لرؤيتها وبعد عهده بها فلم يكن للعاشق في غالب الأحوال إلاَّ النظر، العجلي، قال علي بن الجهم:

وقلن لنا نحن الأهلة إنما نُضيء لمن يسرى بليل ولا نقري

فلا بذل إلاَّ ما تزوّد ناظر ولا وصل إلاَّ بالخيال الذي يسري(١١).

وكان على العاشق أن يهتبل غِرة من الرقيب ليظفر بنظرة أو ابتسامة أو تحية أو كلمة تكون زاداً له وكان عشاق العرب يظفرون برؤية الحبيب في بعض المواقف العابرة، وقد سجل شعراء العرب هذه المواقف في أشعارهم فصارت لحظات باقية ببقاء الشعر العربي.

وقت الرحيل:

أشهر المواطن التي يتاح للرجل فيها رؤية المرأة هي مواقف الرحيل والقوم يزمون جمالهم للرحيل فإذا عن لبعض أحياء الخليط - وهم القوم المجتمعون على الماء الواحد من قبائل شتى - أن يقف على القوم وهم مشغولون بزّم الجمال وشد الرحال وأمرهم فوضى استطاع أن يظفر بنظرة من الحبيبة، وهذه الفوضى صورها الحارث بن حلزة:

أجمعوا أمرهم عشاءً فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

من منادٍ ومن مجيبٍ ومن تصـ ـهال خيلٍ خلاك ذاك رُغاء (١٢).

حتى أن زهيراً ذكر أن أصحابه في عجلتهم لم يضعوا "الشوار" وهو الزينة على الرحل، قال:

مقوّرة تتبارى لا شوارَ لها إلا الولايا على الأكوار والوُرُكُ(١٣).

فقد نزل بهم أمر أعجلهم عن إحكام أمرهم ووصف سحيم عبد بني الحسحاس هيئة المرأة وزينتها ساعة الرحيل فقال:

إذا اندفعت في ريطة وخميصةٍ ولا ثت بأعلى الرأس برداً يمانيا

أرتك غداة البين كفاً ومعصما ووجها كدينار الأعزة صافيا(١٤).

ووصف امرؤ القيس العجلة التي تبيح النظرة ساعة الرحيل فقال:

قامت رقاشِ وأصحابي على عجل تبدي لك النحر واللّبّات والجيدا(١٥).

وأكثر ما يراه منها صاحبها الترائب قال النابغة:

فلو كانت غداة البين منّت وقد رفعوا الخدور علي الخيام

صفحت بنظرة فرأيت منها تُحيت الخدر واضعة القرام

ترائبَ يستضيء الحَلْىَ منها كجمر النار بُذّر بالظلام(١٦).

والقرام ثوب من صوف ملون وهو صفيق يتخذ ستراً وذكر المثقب العبدي الجيد مع الترائب والذهب الذي تزينت به فوق الترائب.

أرين محاسنا وكنن أخرى من الأجياد والبَشَر المصون

ومن ذهبٍ يلوح على تَريبٍ كلون العاج ليس بذي غضون(١٧).

وقد يكون هذا الرحيل في البكور كقول الحادرة:

بكرت سمية بكرةً فتمتع وغدت غدوَّ مفارق لم يربع(١٨).

أو في الضحى كما في قول عبداللّه بن العجلان:

أشارت إلينا في خفاةٍ وراعها سَراةَ الضحى منّي على الحي الموقف

وقالت تباعدْ يابن عمي فإنني مُنيت بذي صولٍ يَغار ويعنف (١٩).

أو اضطرب أمرهم واختلفوا فتأخروا إلى الظهيرة كما فعل أصحاب زهير:

ردَّ الإماء جمال الحي فانصرفوا إلى الظهيرة أمر بينهم لَبِكُ(٢٠).

أو رحلوا ليلاً، كما قال عبيد:

لمن جمال قبيل الصبح مزمومة مُيمِّمَات بلاداً غير معلومة(٢١).

وكانوا إذا وصفوا المرأة في الصباح وصفوها بأنها بيضاء وهي في العشية صفراء كما قال:

بيضاءُ ضحوتَها وصَفْـ ـراءُ العشيّة كالعرارة (٢٢).

ولهذا عدة وجوه أولها أن العرب كانت تجعل الطول عمود الجمال والبياض برنسه كما في قول خالد بن صفوان لامرأته وقد قالت له "إنك لجميل": فقال لها وكيف أكون جميلا وليس فيَّ عمود الجمال وليس عليَّ برنسه؟ "قالت" "وما عمود الجمال وما برنسه" قال: "عموده الطول وبرنسه البياض والعاشق يرى محبوبه في أكمل الصّور لذا وَصَفُوا النساء بالبياض". وكانت العرب تصف الجارية الحسناء بأنها تتلون بتلون الشمس لرقة بشرتها فهي كالزجاج فتكون في الصباح بيضاء كشمس الضحى وفي العشية صفراء كالشمس إذا جنحت للغروب. وقد تكون الصفرة لأجل الخلوق الذي على جسدها وأغلب طيبهم الزعفران.

وربما زادت الحبيبة على النظرة فابتسمت:

إذ تستبيك بذي غروب واضح عذبٍ مقبله لذيذ المطعم(٢٣).

أو أشارت في خفاء بعودٍ من أراك أو بشام تميح به أسنانها:

أتذكر إذ تودعنا سليمي بعود بشامةٍ سُقى البَشام(٢٤).

وربما أراد الرجل فراق امرأته كارهاً لها أو كارهة له فتفنّنت في إبداء محاسنها لنوينه أو لتغيظه قال:

كُبيشة عِرسي تريد الطلاقا وتسألني بعد هدءٍ فراقا

وقامت تريك غداة الرحيـ ـل كشحاً لطيفاً وفخداً وساقاً

ومنسدلاً كمثاني الحبا ل توسعهُ زنبقاً أو خلاقا(٢٥).

زيارتها لجيرانها:

وتسنح للرجل رؤية المرأة وهي تزور جارتها فيصف مشيتها وزينتها قال الأعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتها مرُّ السحابة لا ريث ولا عجل

تسمح للحَلْيِ وسواساً إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل(٢٦).

وربما كان في ذكر الأعشى للريح إشارة خفية إلى أنها خرجت في يوم عاصف فالتصق ثوبها بجسدها فأظهر محاسنها قال ذو الرمة:

أرى الزلَّ يكرهن الرياح إذا جرت وميٌّ بها لولا التحرُّج تفرحُ

إذا ضربتها الريح بالمِرط أشرفت روادفها وانضمَّ منها الموشح(٢٧).

ومن هذا الضرب الأبيات المشهورة:

أبت الروادف والثُّديُّ لقمصها مسَّ البطون وأن تمسَّ ظهورا

وإذا الرياح مع العشيِّ تناوحت نبهن حاسدة وهجن غيورا

وإذا كان اليوم ماطراً وخرجت فيه المرأة أو أدركها المطر هي في الطريق بدا ثوبها صفيقاً يشفُّ عن محاسنها كصويحبات عبيد بن عبدالعزّى:

فجئن هدوًّا والثياب كأنها من الطِل بلَّتها الرهام النواشع(٢٨).

وقد يكون في مشيتها تقصف ودلال فهي تهتز اهتزاز الرمح مدلة بحسنها قال ابن مقبل:

يهززن للمشي أو صالا منعمة هزَّ الجنوب معاً عيدان يبرينا

أو كاهتزاز رديني تناوله أيدي التجار فزادوا متنه لينا(٢٩).

وقد تكون في جماعة من النساء كما قال الحارث بن حلزة:

خرجتْ تَجاسَرُ في ثلاثٍ كالدُّمى مَشيَ النَّعاج بزاهرٍ حُوذانُه

كالعذق زعزعه رياح حرجف واهتزَّ بعد فروعه قِنوانه(٣٠).

والحوذان نبات والقنوان العذق.

وتشبيه المرأة بالنخلة معروف عند العرب ففي النخلة الطول والاعتدال وهو مما تمدح به المرأة. كما أنها إذا اثقلت بثمارها تمايلت واهتزت كما تفعل المرأة المنعمة وهي تمشي وتشبه ثمارها في أطوارها المختلفة بالحلي. وفي كتاب قيصر إلى الخليفة عمر رضي اللّه عنه! "إن رسلي أتتني أن قبلكم شجرة تخرج مثل آذان الحمر ثم تنشق عن مثل اللؤلؤ ثم تخضر فتكون مثل الزمرد والزبرجد الأخضر ثم تحمر فتكون مثل الياقوت الأحمر"(٣١) وفي اللسان:

رأيت بها قضيباً فوق دعص عليها النخل أورق والكروم(٣٢).

فالدعص الردف، والقضيب القوام، وثمر النخل والكروم الحلي والله أعلم.

سامر الحي: من المواطن التي يتاح للرجل فيها النظر للمرأة هي اجتماع السمّار كما قال:

وقد أراها وسط أترابها في الحي ذي البهجة والسامر(٣٣).

وقال عدي بن الرقاع في صاحبته وقد فضُلَت النساء حسناً:

وكأنها وسط النساء أعارها عينيه أحورُ من جآذر جاسم

وسنان أقصده النعاس فرنّقت في عينه سنة وليس بنائم(٣٤).

ومن طريف الصور ما رواه لسان الدين بن الخطيب عن بعض بدو الصحراء بالمغرب قال في ترجمته: "كان أبوبكر هذا رئيساً على بعض قبيله في الصحراء، وكان ابن عمه منفرداً بالتدبير، فاتفق يوماً أن دخل على ابن عمه في خبائه وزوج ابن عمه تمتشط في موضع قريب من الخباء فاشتغلت نفس أبي بكر بالمرأة لحسنها وجمالها، فحين دخل قال لابن عمه: فلانة تريد الوصول إليك، وإنما قصد الاستئذان لرجل من أصحابه، فنطق باسم المرأة لشغل باله بها، فقال له ابن عمه بعد طول صمت وفكرة وقد أنكر ذلك: عهدي بهذا الشخص لا يستأذن علينا! فرجع عقله وثاب له وعلم قدر ما من القبيح وقع فيه، فخرج من ذلك المجلس وركب جمله وهان عليه مفارقة وطنه من أجل العار"(٣٥).

جلوة العروس:

كانت العروس تُقيَّن وتزيَّن ثم تُزفُّ إلى دار زوجها فيتاح

للناس أن ينظروا إليها وربما أبرزها أهلها للناس لينظروا إليها وفي حديث مصعب بن الزبير: أن رجلاً أنشد مصعب بن الزبير قولَ جميلٍ:

ما أنسَ لا أنس منها نظرة سلفت بالخدر يوم جلتها أم منظور

فقال: لو ددت أني عرفت كيف جلتها؟ فقيل له: أن أم منظور هذه حية، فكتب في حملها إليه مكرمة.فحملت إليه، فقال لها: أخبرني عن قول جميل:

ما أنسَ لا أنسَ منها نظرة سلفت بالخدر يوم جلتها أم منظور

كيف كانت هذه الجلوة؟ قالت: ألبستها قلادة بلح ومخنقة بلح واسطتها تفاحة وضفرت شعرها وجعلت في فرقها شيئاً من الخلوق، ومرَّ بنا جميل راكبا ناقته فجعل ينظر إليها بمؤخر عينه ويلتفت إليها حتى غاب عنا فقال لها مصعب فإني أقسم عليك إلاَّ جلوت عائشة بنت طلحة مثل ما جلوت بثينة، ففعلت، وركب مصعب ناقته وأقبل عليها وجعل ينظر إلى عائشة بمؤخر عينه ويسير حتى غاب عنها ورجع[٣٦]، وقال الوليد بن يزيد يصف كأساً من الخمر:

أشهى إلى الشَّرب يوم جلوتها من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلَّت ورقَّ جوهرها حتى تبدت في منظر عجب[٣٧].

وقال توفيق بن محمد بن الحسين يصف الجلنار بلونه الأحمر وهو يعلو أوراقه الخضراء:

مثل العروس تجلّت يوم زينتها حمر الحُليِّ على خضر الملابيس[٣٨].

والضد يظهر حسنه الضد.

تبذلها لبعض حاجتها:

وقد تتبذل المرأة وهي تباشر بعض شئونها كما في حديث الأعرابي الذي أعياه سقي إبله فنظرت إليه عروسه فرقّت له فشمّرت عن ساقها وذراعيها وقامت تعينه فقال:

قامت تريك بشراً مكنوناً
قد علمت أن لم أجد معينا
لأخلطنَّ بالخلوق الطينا

ولا يستحي عشاق الأعراب أن يكمنوا عند الغدران حيث تتجرد النساء من ثيابهن فيغتسلن وهن يحسبن أنهن في منجى من الرقباء قال امرؤ القيس:

إذا ما استحمّت كان فضلُ خَميمها على متنتيها كالجُمانِ لدى الجالي[٣٩].

وما أحسبه رأى ذلك منها الا وهو بحيث لا تراه.

وفي قصة المرقش أنه رأى أسماء بنت عمّه وهي تغتسل فهاله ما يرى من حسنها قالوا فعشقها حتى ما استطاع أن يركب راحلته.

وليس أشهر من قصة دريد بن الصمة مع الخنساء، قيل: إن دريد بن الصمة مرَّ بالخنساء بنت عمرو بن الشريد وهي تهنأ بعيراً لها وقد تبذلت حتى فرغت منه ثم نضت عنها ثيابها فاغتسلت ودريد بن الصمة يراها وهي لا تشعر به فأعجبته فانصرف إلى رحله وهو يقول:

حيوا تُماضر وأربعوا صحبي وقفوا فإن وقوفكم حسبي
أخناس قد هام الفؤاد بكم وأصابه تبل من الحب

ما إن رأيت ولا سمعت به كـاليـوم طـالـي أينـق جرب
متبــذلاً تبــدو محـــاسنـــه يضع الهِناء مواضع النقب(٤٠).

وقد تتعمــد المـرأة تتجـرد مـن ثيابهـا أمـام صويحباتهـا مدلـة بحسنها كما فعلت صاحبة عمر بن أبي ربيعة كما زعم:

زعموها سألت جاراتها وتعــرّت ذات يــوم تبتـــرد
أفكما ينعتـني تبصـرنني عمـركنَ اللّه أم لا يقتصـد
فتضاحكن وقد قلن لها حسن في كـل عين مـن تود
حسداً حُمِلْنَهُ من أجلها وقديما كان في الناس الحسد(٤١).

وقد نشأت كثير من قصص الحب على الماء؛ قيل فـي ابتـداء حب جميل وبثينة أن جميلاً أورد إبله الماء فجاءت بثينة ومعها أخت لها ترد الماء فنفرت الإبل فسبها جميل فسبته فاسـتملح سبها وعلـق قلبه بها فقال:

وأول ما قاد المودة بيننا بوادي بغيض يا بثين سباب(٤٢).

وفي قصة الحسن البصري وهـي مـن أمتـع قصـص ألـف ليلـة وليلة نجد أن الحسن البصري لقي الأميرة بدور على بركة المـاء فـي الغرفة المحرم دخولها عليه لعل واضع القصة أفاد من هذه الصور فـي الشعر العربي القديم وقال المعري رحمه اللّه مترفعاً عن هذا وأشباهه:

فراعِ اللّه والْهُ عن الغواني يرحن ليمتشطن ويرتحضنه(٤٣).

يرتحضن أن يغتسلن.

المرأة في الحج:

نقلت إلينا كتب الأدب كثيراً من شعر الغزل في أيام الحج حيث يختلط الرجال والنساء ولا يمكن أن يحترز من النظر ويغتنم عشاق العرب هذا الجمع فيملؤون أعينهم من الحسان وقد روى أن الإمام علياً كرم اللّه وجهه لطم رجلاً في الطواف فشكاه إلى الخليفة عمر رضي اللّه عنه فسأل علياً فقال: رأيته ينظر إلى حرم المسلمين، قال عمر: أذهب فقد وقعت عليك عين من عيون اللّه. ولم تتحرج كتب الأدب في نقل هذا الشعر قال عمر بن أبي ربيعة:

أبصرتها ليلةً ونسوتَها يمشين بين المقام والحجر
بيضاً حساناً خرائداً قُطُفاً يمشين هوناً كمشية البقر(٤٤).

ومن هذا الضرب ما رواه ابن قيم الجوزية رحمه اللّه قال: خرج أبو حازم يرمي الجمار ومعه قوم متعبدون وهو يكلمهم ويحدثهم ويقص عليهم، فبينما هو يمشي وهم معه إذ نظر إلى فتاة مستترة بخمارها ترمي الناس بطرفها يمنة ويسرة وقد شغلت الناس وهم ينظرون إليها مبهوتين وقد خبط بعضهم بعضاً في الطريق، فرآها أبو حازم فقال: يا هذه اتقي اللّه فإنك في مشعر من مشاعر اللّه عظيم وقد فتنت الناس، فاضربي بخمارك على جيبك فإن اللّه عز وجل يقول: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ فأقبلت تضحك من كلامه وتقول: إني واللّه

من اللائي لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البريء المغفلا(٤٥).

وقد يواعد العاشق محبوبته في هذا الموطن قال أعشى همدان في قصيدته التي مطلعها:

حييا جزلةَ منى بالسلام درّةِ البحر ومصباحِ الظلام

إلى قوله:

واذكري الوعد الذي واعدتني ليلةَ النصف من الشهر الحرام(٤٦).

وأظن أن شهره الحرام هو ذو الحجة هذا مع ما عظم اللّـه بـه بيته وأحاطه به من تجله وجعل له من الحرمة.

الغزل في المآتم:

كانت المـرأة المخـدرة إذا فاجأتهـا المصيبـة بـرزت وشـقت جيبها فكشفت عن بعض محاسنها كما قال قيس بن زهير:

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نسـوتنا بوجـه نهار

يجـد النساء حواسراً يندبنه يبكين قبـل تبلج الأسـحار

قد كن يخبأن الوجوه تستراً فالآن حين بدون للنظار(٤٧).

وقد وصف كعب بن زهير سير ناقته وشـبه ذراعيهـا بذراعـى امرأة ثاكِلٍ تلطم وجهها وقد شقت جيبها فكشفت عن تراقيها:

كأن أوب ذراعيها إذا عرقت وقـد تلفّع بالقـور العسـاقيل

شدّ النهار ذراعاً عيطل نَصَفٍ قامت فجاوبها نكد مثاكيل

تفرى اللّبـان بكفيهـا ومدرعها مشقّقٌ عن تراقيها رعابيل(٤٨).

ويشغل هول المصيبة أهلها من أن يمنعوا أحداً من النظر إليهـا وأبيات أبي نواس معروفة:

يا قمـراً أبـرزه مـأتـم ينـدب شجـواً بيـن أتـراب

يبكي فيـذري الدمـع مـن نرجس ويلطـم الدَّر بعنّاب

لا تبك ميتاً حلّ في حفرة وابك قتيلا لك بالباب (٤٩).

والحب أخو الأسى لا يفارقه، وقد روي أن رجلا من أشراف العرب مرَّ على امرأة مات زوجها فوقفت تند به بين صاحباتها وتلطم وجهها، فأعجبته فبعث إليها جاريته وقال: قولي لها: لا تلطمي وجهك هكذا فإن بنا إليه حاجة، قالوا: فما أن أخبرتها حتى ارتخت يداها فما أن أتمت العدة حتى تزوجته.

المرأة والغارة:

لم يكن قوم من الأعراب يبيتون إلا وهم في خوف من الغارة فإذا فجأتهم الغارة أعجلت المرأة عن لبس ثيابها، قال عمرو بن معديكرب:

لما رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدّاَ
وبدت لميس كأنها بدر السماء إذا تبدّى
وبدت محاسنها التي تخفى وكان الأمر جدّاَ
نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدّاَ[٥٠].

وقال قيس بن الخطيم:

كأن بطونهن سيوف هند إذا ما هنّ زايلْن الغمودا[٥١].

وما ربط قيس بين السيف وبطن المرأة إلا أنه رأى بطنها وقت الغارة.

وكانت النساء أحيانا يبرزن في المعارك وهن متبرجات ليذكرن الرجال بما قد نالهن إذا هم ولوا الأدبار وصرن نهباً وسبياً قالت هند بنت عتبة في معركة أحد وهي تقف بين وصائفها:

نحن بنات طارقْ لا ننثني لوامقْ
نمشي على النمارقْ مشي القُطَيِّ البارقْ

المسك في المفارقْ والدر في المخانقْ
إن تقبلوا نعانقْ ونفرش النمارقْ
أو تدبروا نفارقْ فراق غير وَامِقْ[٥٢].

المواعد:

وقد يحال بين الرجل ومحبوبته فيطول البعد فيحتال فيضرب لها موعداً ليلقاها فيه وعليه أن يغتنم غفلة الرقيب أو نومه كما قال امرؤ القيس:

سموت إليها بعدما نام أهلها سمو حباب الماء حالاً على حال[٥٣].

أي ترفقت في الوصول إليها شيئاً فشيئاً لكي لا يُشعر بمكاني كحركة حباب الماء وهو يدور في الكأس.

وقال الأعشى:

وقد أخالس رب البيت غفلته وقد يحاذر مني ثم مايئل[٥٤].

وربما استعان العاشق ببعض أصحابه كما قال الأحوص:

من عاشقين تراسلاً وتواعداً ملقاً إذا نجم الثريا حلّقا
بعثا أمامهما مخافة رقبة رصداً فمزق عنها ما مزّقا
باتا بأنهم ليلة وألذّها حتى إذا وضح الصباح تفرقا[٥٥].

وقد يكمن يومه إلى الليل متحيناً الفرصة، قال أبو الطيب:

ويوم كليل العاشقين كمنته أراقب فيه الشمس أيّان تغرب[٥٦].

وللظلام يد لا تكفر عند العشاق، قال عبدالله بن المعتز:

لا تلقَ إلا بليل من تواصله فالشمس نمّامة والليل قوّاد
كم عاشق وظلام الليل يستره وافى الأحبةَ والواشون رقّاد[٥٧].

وقد يحجم العاشق عن الزيارة خوفَ الرقيب قال:

ولو أن واشٍ باليمامة داره وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا[٥٨].

وما جعله باليمامة إلا أنه لم يكن يعرف مكانه وهذا أشد وأصعب على العاشق لأن الرقيب يراه من حيث لا يراه هو وإذا كان معروفاً لديه حذره وتوقاه والبيت من شواهد النحويين في باب الضرائر الشعرية.

فإذا غلب الشوق على العاشق أقدم ولم يبال بالعواقب فإن غلبة العشق قد أزالت عن قلبه الخوف وحسبان العواقب والنظر إلى الحسود.

ويصف ابن خفاجة الأندلسي استهتار العاشق وقلة مبالاته بالعواقب في سبيل لقاء الأحبة فقال:

لقد جبتُ دون الحيّ كل تنوفةٍ يحوم بها نسرُ السماء على وَكَرِ
وجئتُ ديار الحيّ والليل مُطرفٌ منمنم ثوب الأفق بالأنجم الزهر
وخضت سواد الليل يسود فحمه ودست عرين الليث ينظر عن جمر
فلم ألق إلاَّ صعدة فوق لأمة فقلت قضيب قد أطل على النهر
ولا شمت إلاَّ غرة فوق شقرة فقلت حباب يستدير على خمر
وسرت وقلت البرق يخفق غيرة هناك وعين النجم تنظر عن شزر[٥٩].

فقد خيل إليه استهتاره وحرصه على ملاقاة الحبيب أن يرى الأشياء على غير صورها فقد كمن له بعض أهل الحبيبة يحمل رمحاً ويلبس خوذة على فرس أغر أشقر فرأى في الرمح غصناً مطلاً على النهر وفي الغرة على الشقرة حباباً على كأس من الخمر.

وقد يقع العاشق في المحذور فيظفر به أهل الحبيبة وقد روى أن رجلاً من العرب واعد أمرة فأحسّ به قومها وكانوا بداة جفاة رعاة فأخذوه فضربوه بعصي التنضب وهو شجر أرضهم حتى كاد يهلك فمكث زماناً ثم أرسلت إليه المرأة تواعده أخرى فقال يخاطبها:

رأيتك لا تغنين عني بقرةٍ إذا اختلفت في الهراوى الدمامكُ
فأقسم لا آتيك ما دام تنضبٌ بأرضك أو صُلبُ العصامن رجالك(٦٠).

الدمامك هي العصي الشديدة القوية وصلب العصا الراعي وهو يجيد الضرب بالعصا.

ومن حِيَل العشاق أن يمرَّ العاشق على بيت المحبوب إذا كانوا لا يعرفونه فيستسقي ماءً ليمتع عينيه بالنظر إلى المحبوب ومرَّ أميران من أمراء آل بني عباس على بيت أعرابية جميلة كانا قد سمعا بحسنها فطلبا منها ماءاً لغير الظمأ وإنما هو لمجرد التعلل لينظرا منها ذلك الجمال فقالت وأحسنت في المقال:

هما استسقيا ماءاً على غير ظمأةٍ ليستشفيا باللَّحظ ممن سقاهما

وتزخر كتب الأدب التي اهتمت بأخبار العشاق وحيلهم في الوصول إلى أحبتهم بهذا الضرب من الأخبار مثل **تزيين الأسواق في أخبار العشاق** للأنطاكي،**وديوان الصبابة** لابن أبي حجلة،**وروضة المحبين** لابن قيم الجوزية،**والأغاني** لأبي الفرج الأصفهاني وغيرها.

هوامش

١- **اللسان هركل، والجماهر في معرفة الجواهر**، أبو الريحان البيروني، طبع دائرة المعارف العثمانيه د. ت وفيه "جريها" بدلاً من "دونها" ١٤٣/١. والبيت غير موجود في ديوان عمرو بن أحمر الباهلي تحقيق حسين عطوان.

٢- **المفضليات**، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف، مصر، ١٩٤٢م، ص ٣٩٢.

٣- **شرح النابلسي** على ابن الفارض، طبعة حجر ١٢٨٩: ١٤٥/١.

٤- **الأغاني**، دار الثقافة: ٧٧/١٧ وفي رواية ويأتينها جاراتها ذكرت شاهداً على لغة أكلوني البراغيث.

٥- سورة النحل : الآية: ٥٨.

٦- **فوات الوفيات** لابن شاكر، المطبعة الأميرية، ١٠/١٢٩٩:١- زهير الأداب للحصري، المطبعة الرحمانية مصر، ١٧٤/٢.

٧- **الأغاني**، دار الثقافة ٦٧/٦٦/١٤.

٨- **المستطرف من كل فن مستظرف**، شهاب الدين بن محمد الأبشيهي، ط بغداد ١٩٨٦م ١٢٦/٢.

٩- **ديوان ذي الرمة** طبع كمبردج، ١٩٠٩م: ٨٩.

١٠- **شرح أشعار الهذليين**، صنعة أبي سعيد السكري مكتبة دار العروبة، د.ت: ٩٩٧/٢.

١١- **ديوان علي بن الجهم** تحقيق خليل مردم بك، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٢٩م، ص ٢٥٢.

١٢- **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**، أبو القاسم الأنباري، دار المعارف، مصر ١٩٦٣م : ٤٥٢-٤٥٣.

١٣- **ديوان زهير بن أبي سلمى**، دار الكتاب العربي ١٩٩٥م، ص ١٣٩.

١٤- **كتاب التشبيهات**، عبدالله بن المعتز، كمبردج ١٩٥٠م: ١٠٢.

١٥- **ديوان امرئ القيس**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر ١٩٥٨م، ص ٢٢.

١٦- **ديوان النابغة** دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٤م: ٦٣.

١٧- **المفضليات**، تحقيق ليال، مطبعة اليسوعيين ١٩٢٠م: ٥٩٧.

١٨- **المفضليات**: ليال: ٤٣.

١٩- **الأغاني**، دار الثقافة، ٢٢/٢٢٣.

٢٠- **شرح ديوان زهير** صنعة ثعلب: ١٣٧.

٢١- **ديوان عبيد بن الأبرص**، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٧م: ١٢٧.

٢٢- **ديوان الأعشي**، ميمون بن قيس بيروت ١٩٦٠م، ص ٧٥.

٢٣- **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**: ٣٠٧.

٢٤- اللسان مادة بشم وهي كذلك في **الحماسة** وفي رواية التهذيب "أتذكر يوم تصقل عارضيها".

٢٥- **معجم الشعراء** المرزباني، تحقيق عبدالستار أحمد فراج دار إحياء الكتب العلمية بيروت ١٩٦٠م: ٥١٣.

٢٦- **ديوان الأعشى**: ١٤٤.

٢٧- **ديوان ذي الرمة** طبع كمبردج، ١٩٠٩م: ٧٩ هامش.

٢٨- **قصائد جاهلية نادرة**، يحي الحبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨م: ص١٧.

٢٩- **الشعر والشعراء**، ابن قتيبة دار إحياء الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٤م: ص٣٠٤.

٣٠- **كتاب التشبيهات**: ٩٥.

٣١- **حيات الحيوان الكبرى** نقلاً عن كتاب **النخيل** ، عبدالله أحمد يوسف، مطبعة جامعة الخرطوم، ١٩٩٥م: ١/٢٩٧.

٣٢- **اللسان** مادة نحل.

٣٣- **اللسان** مادة بهج.

٣٤- **الشعر والشعراء** ٤١٦.

٣٥- **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبدالله عنان، دار المعارف مصر ١٩٥٥م، ١/٤١٢.

٣٦- **الأغاني** ٨/١١٣.

٣٧- **الأغاني** ٧/٢٠.

٣٨- **إنباه الروّاة** ١/٢٥٨.

٣٩- **ديوان امرئ القيس**: ٣٧٨، ذكره المحقق محمد أبو الفضل إبراهيم في ملحق الديوان **وفي كتاب التشبيهات** لابن المعتز " الجاني بدلا من الجالي".

٤٠- **الأغاني** دار الثقافة ٧/١١٠.

٤١- **ديوان عمر بن أبي ربيعة**، مطبعة المدني القاهرة ١٩٦٥م: ٣٢١.

٤٢- **الأغاني** ٧٨/٨.

٤٣- **اللزوميات**، أبو العلاء المعري ط الخانجي القاهرة ١٩٢٤م: ٣٥٨/٢.

٤٤- **ديوان عمر بن أبي ربيعة** ١٤٤.

٤٥- **روضة المحبين ونزهة المشتاقين** ابن قيم الجوزية، المكتبة التجارية الكبرى، مصر ١٩٥٦م: ٢٢٥.

٤٦- **الأغاني** ٤٠/٦.

٤٧- **الأغاني** ٤٠/٦.

٤٨- **جمهرة أشعار العرب**- أبو زيد القرشي تحقيق محمد علي البجاوي، دار نهضة مصر القاهرة د . ت: ٧٩٥.

٤٩- **ديوان أبي نواس**، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ١٩٨٧م: ٩٧.

٥٠- **شعر عمر بن معديكرب** الزبيدي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٥م، ص ٨١.

٥١- **ديوان قيس بن الخطيم**، تحقيق ناصر الدين الأسد طبع المدني القاهرة ١٣٨١هـ: ص ٩٠.

٥٢- **تاريخ الرسل والملوك**، محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار سويدان بيروت د. ت ٩٢/٢.

٥٣- **ديوان امرئ القيس**: ٢٧.

٥٤- **ديوان الأعشى**: ١٤٧.

٥٥- **ديوان الأحوص**: تحقيق عادل سليمان جمال، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٢م: ١٦٢.

٥٦- **ديوان المتنبي** شرح أبي البقاء العكبري، طبع مصطفى البابي الحلبي مصر ١٩٥٦م: ١٧٩/١.

٥٧- **ديوان عبدالله بن المعتز** المكتبة العربية دمشق ١٣٧١هـ: ٩٦.

٥٨- **شرح النابلسي** علي ابن الفارض ١٠٦/٢.

٥٩- **ديوان ابن خفاجة الأندلسي**، دار صادر بيروت ١٩٦١م: ١٢٤.

٦٠- **لسان العرب** مادة صلب.